" أوديب ملكاً " لسوفوكليس
قــراءةٌ جديدةٌ

الدكتور برهان أبو عسلي*

الملخص

لأسطورة " أوديب " مكانةٌ بارزةٌ في الأدب العالمي ، فمنذ عصر الإغريق وحتى يومنا هذا لا تزال هذه الأسطورة تُقرأُ وتُفسَّرُ تفسيراتٍ مختلفة، وفي كلِّ قراءةٍ يجدُ المرءُ شيئاً جديداً لم يكتشفه في القراءة السابقة. فما سرُّ خلود هذه الأسطورة عبر الزمن؟ وما سرُّ احتفاء المبدعين المسرحيين بها على مرِّ العصور ؟ وكيف قرؤوها في أعمالهم ؟

إنَّ هذه الأسئلة وما شابهها لن تُفهم أو تتمَّ الإجابة عنها ما لم نقف عند أبرز كُتَّاب المسرح العالمي سوفوكليس ، بوصفه أبرز كُتَّاب الإغريق الذين قرؤوا هذه الأسطورة قراءةً واعيةً، أضاف إليها أبعاداً جديدةً، وضمَّنها رؤيةً مختلفةً عمَّن سبقه من المسرحيين الإغريق، وكان - فيما بعد - مؤثِّراً في غيره من الكُتَّاب المسرحيين الذين جاؤوا بعده.

* قسم اللغة العربية - كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة دمشق

إنَّ النصوص الأدبية العظيمة تُقرأُ قراءاتٍ متعدِّدةٍ وبمستوياتٍ مختلفةٍ؛ وذلك من أجل سبر أغوارها والنفوذ إلى أعماقها، والكشف عن أســرارها ومضامينها، والوقوف على جمالياتها وأهدافها. إنَّ مسرحية " أوديب ملكاً " لسوفوكليس نصٌّ أدبيٌّ عظيمٌ وخالدٌ يستحق النظر فيه غير مرةٍ لما فيه من أســرارٍ ؛ كُشِفَ بعضُها ، وينتظرُ بعضُها الآخر من يكتشفه.

ومن هنا فإنَّني سأقدِّم في دراستي هذه قراءةً جديدةً لــ " أوديب ملكاً " تُسهم كغيرها من القراءات السابقة في إضاءة بعض الجوانب الخافية من أسرار هذا العمل الأدبيِّ العظيم وصولاً إلى فهمٍ أفضل ، ورؤيةٍ خاصةٍ له ، تكون مُؤسِّسَةً لدراساتٍ مقارنيةٍ جديدةٍ ، وانطلاقاً أوعى، وفهم أعمق لتأثير سوفوكليس في غيره من الكُتَّاب الذين حاكوه في عمله هذا.

" أوديب ملكاً " لسوفوكليس

قــراءةٌ جديدةٌ:

حظيت أسطورة " أوديب " بمكانةٍ بارزةٍ لدى الكُتّاب المسرحيين، والنُّقَّاد، والقراء على مرِّ العصور والتاريخ الإنساني لما حملته هذه الأسطورة من معانٍ وأفكارٍ وقيمٍ إنسانيةٍ. فقد قُرئت واستُلهمت في كلِّ عصرٍ، وتعدَّدت قراءاتها، وتلونت بتلون الكُتَّاب والقراء والعصور، وأفاد منها الأدبـــاء، والفلاسفة، والنُّقَّاد، والقراء، وعلماء النفس[1]. ولعلِّي لا أبالغ إن قلت إنَّ هذه المسرحية تثير القارئ في كلِّ مرةٍ يقف معها، وتدعوه للتفكير من جديدٍ في القضايا التي تتضمنها وتعالجها، وتجعله يتساءل من جديدٍ في كلِّ قضيةٍ أثارتها، وفي المصائر التي آلت إليها شخصياتها، وفي الرسالة التي أراد سوفوكليس أن يوصلها إلى القارئ؛ تلك الرسالة التي لا تزال تتجدَّد وتتجلَّى عظمتها وقيمتها بتجدُّد النظرة إلى هذه المسرحية وقراءتها. ناهيك عن العبر والفوائد الكثيرة التي تحملها هذه المسرحية وتدعو المتلقي إلى التفكير فيها والاستفادة منها في حياته المتعددة الجوانب. ولعلَّ في قراءتي هذه برهاناً جديداً على عظمة هذه المسرحية وما تضمنته من أفكارٍ ومعانٍ وعبرٍ تفيد الكُتَّاب المسرحيين والنُّقَّاد والمقارنين ودارسي الآداب العالمية والقراء على السواء.

أولاً: أســـطورة "أوديب"

تحكي هذه الأسطورة قصة النبوءة التي تلقَّاها الملك لايوس من الآلهة؛ من أنَّ ولداً من صلبه يولد سيقتله حين يشبُّ ويتزوج من أمه جوكاستا . هذه هي الفكرة الرئيسية التي تقوم عليها هذه الأسطورة . إنَّها قصةٌ مثيرةٌ ؛ تجعل المرء في حيرةٍ من

1 - انظر عتمان، أحمد : المصادر الكلاسيكية لمسرح توفيق الحكيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 1978، ص 56 وما بعدها.

أمر هذا الوليد الذي يرتكب إثــمَيْنِ مُحرَّمَــيْنِ في آن معاً، هما قتل الأب والزواج من الأم .

لقد تعدَّدت الروايات التي تحدَّثت عن قصة "أوديب" واختلفت طرق عرضها من زمن إلى آخر. فلا يُعرف أصلها الحقيقي، ولا أين وجدت، ولا أين ظهرت، وكيف وصلت إلى بلاد الإغريق[2]. وقد غدت مع مرور الزمن أسطورةً شعبيةً مشهورةً بما أضافه إليها الرواة، فتناقلها الناس في مجالسهم على أنها حكايةٌ من تلك الحكايات التي عرفوها في حياتهم.

وقد صاغها الكُتَّاب المتأخِّرون بطرقٍ مختلفةٍ ومتعدِّدةٍ لكنَّهم لم يخرجوا عن الخطوط العريضة العامة التي عرفها الناس واعتادوا على تناقلها[3].

أمَّا الروايات الشفوية عنها فإنَّها - دون شكٍّ - هي أكثر تبايناً واختلافاً، ولاشكَّ أنَّ إضافاتٍ كثيرةً قد لحقت أصل الحكاية عبر الزمن. لكنَّها، مع هذا كلِّه، حافظت على الخطوط العامة والعناصر الأساسية للأسطورة، وبقيت هذه الخطوط والعناصر تُشكِّل البناء الأساسي للأسطورة .

2 - انظر إسماعيل، عزالدين : قضايا الإنسان في الأدب المسرحي المعاصر، دراسة مقارنــة ، دار الفكر العربي، 1980، ص 61 وما بعدها.

3 - انظر على سبيل المثال بدوي ، عبد الرحمن : تراجيديات سوفقليس ، ترجمة وتقديم ، المؤســسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1996، ص80 وما بعدها . و حافظ ، علي : أوديب ملكــاً ، سوفوكليس، مسرحيات عالمية52، دون ناشر ودون أو ســنة الطبــع، ص85 ومــا بعــدها وص 88 ومابعدها. وانظر أيضاً عبد الله، مصطفى: أسطورة أوديب في المسرح المعاصر ، الهيئة المــصرية العامة للكتاب، 1983، ص 9 وما بعدها. وانظر كذلك عصمت حمــدي، محمــد: الكاتــب العربــي والأسطورة، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعيــة، القــاهرة، 1968، ص 62 ومابعدها.

ثانياً : أسطورة " أوديب " في التراث الإغريقي

كانت الأساطير الإغريقية القديمة، وملحمتا هوميروس "الإلياذة و"الأوديسا" وغيرهما من الملاحم البطولية والطروادية النبع الذي استقى منه شعراء المسرح التراجيدي الإغريقي جُلَّ موضوعات أعمالهم المسرحية الخالدة[4]. وكانت أسطورة "أوديب" واحدةً من تلك الأساطير المثيرة بموضوعها، والغنية بما تضمنته من أسئلةٍ كثيرةٍ حول علاقة الإنسان بالآلهة والقدر والعدالة والمصير ومكانة الإنسان ودوره في الحياة. فاستوقفتهم، وقرؤوها قراءة واعيةً، واستلهموا منها الكثير من العبر والفوائد والدلالات، وضمَّنوها أفكارهم ورؤاهم وفلسفتهم التي كانوا يؤمنون بها ويدعون إليها. وقد عالج كلٌّ من هؤلاء الشعراء هذه الأسطورة بطريقته التي تميزه من الآخر، وبثَّ فيها آراءه الخاصة من خلال الحوار الذي كان يدور بين الشخصيات، أو من خلال الأناشيد التي كانت الجوقة تؤدِّيها في المسرحية .

فقد عالج أيسخولوس (225- 456 ق.م) قصة "أوديب" في ثلاثيته "السبعة ضدَّ طيبة" التي عُرضت في عام 467 ق.م[5].كما تناول سوفوكليس (497-406 ق.م) هذه الأسطورة في ثلاثيته "أنتيجونا"، "أوديب ملكاً"، "أوديب في كولونوس"[6]. أمَّا

4 - انظرعتمان ، أحمد : الشعر الإغريقي تراثاً إنسانياً وعالمياً ، عالم المعرفة 77، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت، مايو 1984، ص220ومابعدها ، ص 258 وما بعـدها، ص293. وانظر كذلك بدوي ، عبد الرحمن : تراجيديات أسخولوس، المؤسسة العربيـة للدراسـات والنـشر، بيروت، ط1 = = 1996 ، ص11. وانظر كذلك بدوي ، عبد الرحمن : تراجيديات سوفقليس، مرجـع سابق ، ص14 . 86 وما بعدها .

5 - انظر عتمان ، أحمد : الشعر الإغريقي تراثاً إنسانياً وعالمياً ، مرجع سابق ، ص 229، وانظـر كذلك بدوي ، عبد الرحمن : تراجيديات أسخولوس ، مرجع سابق ، 86 وما بعدها .

6 - سيأتي الحديث بالتفصيل بعد قليل عن سوفوكليس ومسرحيته " أوديب ملكاً " .

يوريبيديس (480-406 ق.م) فعالجها في مسرحيتين له، الأولى في مسرحية "أوديب "المفقودة، والثانية في مسرحية " الفينيقيات " التي عُرضت في عام 410 أو 411 [7].

ومن الملاحظ أنَّ هؤلاء الشعراء تناولوا في أعمالهم هذه موضوعاً واحداً؛ هو قصة "أوديب"، لكنَّهم عالجوه معالجةً مختلفةً، وذلك تبعاً لثقافة كلٍّ منهم ورؤيته الحياتية والفنية وفلسفته الخاصة.

إنَّ مردَّ هذا الاختلاف وهذا التباين في المعالجة يعود كذلك إلى قدرة الفنان وموهبته ونفاذ بصيرته في قراءة الأشياء والغوص في أعماقها ووعيها وإدراكها. وقد فعل هؤلاء الشعراء هذا في قراءتهم هذه الأسطورة الشعبية الشائعة بين الناس. فعرفوا أبعادها ودلالاتها وإيحاءاتها ورموزها ومغزاها من خلال تعمقهم في قراءتها، ومن خلال زاوية الرؤية التي نظروا منها إلى هذه الأسطورة.

ومن هنا فقد وجد كلٌّ واحدٍ من هؤلاء الشعراء في هذه الأسطورة أموراً لم يرها غيره، واهتدى، بفضل ما تمتَّع به من وعي وموهبةٍ ونفاذ بصيرةٍ، إلى أفكارٍ ومعانٍ تستحق أن تُكشف وتظهر وتُقدَّم للمشاهد الذي لم يكن بمقدوره إدراكها واكتشافها أو لم تخطر على باله من قبل، كونه مستمعاً أو راوياً أحداث هذه الأسطورة فقط .

لقد تعاصر هؤلاء الشعراء حقاً، وتنافسوا فيما بينهم ، وعاشوا أفكار القرن الذهبي الخامس قبل الميلاد، وثقافته وفلسفته، لكنهم تميزوا بشخوصهم وبطبيعة فنِّهم، فظهروا كما لو أنَّهم ينتمون إلى ثلاثة أجيالٍ مختلفةٍ، كما يقول بعض النقاد، فمسرح

7 - انظر عتمان، أحمد : الشعر الإغريقي تراثاً إنسانياً وعالمياً ، مرجع سابق، ص294 ، ص307. وانظر كذلك بدوي، عبد الرحمن: تراجيديات سوفقليس، المرجع السابق ، ص 88 .

أيسخولوس يمثل التراجيديا القديمة، ومسرح سوفوكليس يمثل التراجيديا الوسطى، أمَّا مسرح يوريبيديس فيمثل التراجيديا الحديثة [8].

ولهذا فإنَّ مسرح كلِّ شاعرٍ من هؤلاء يستحقُّ الدراسة والتأمَّل، والتعرف على ما قدَّمه من إسهاماتٍ جليلةٍ في فنِّ الدراما، كما أنَّه يستحقُّ أن يُقارن بمسرح مَنْ سبقه، وبمسرح مَنْ تلاه. وأســطورة " أوديب " خيرُ شاهدٍ على ذلك؛ فقد اشترك في تناولها هؤلاء الشعراء الثلاثة العظام، ولكن تباينت رؤاهم في معالجتها والهدف من ورائها.

ثالثاً : سوفوكليس وأسطورة " أوديب "

وتُعدُّ قراءة سوفوكليس لأسطورة "أوديب" من أهمِّ القراءات في عصرها، وفي العصور اللاحقة، وحتى يومنا هذا، وذلك لما تميَّز به هذا الشاعر من غيره من الشعراء السابقين واللاحقين بما أضافه إليها من فكره وفلسفته. ويمكن للمرء أن يتبيَّن ذلك التميُّز ويجمله في الأمور الآتية :

أولاً: عاش سوفوكليس مابين عامي (479-406 ق.م)؛ أي أنَّه عاصر الشاعر التراجيدي أيسخولوس فترة طويلة من الزمن، وكذلك عاصر الشاعر التراجيدي يوريبيديس فترة حياته كلها حتى وفاته. ولا شكَّ أنَّ هذه المعايشة أكسبته كثيراً من المعرفة والخبرة في فنِّ الدراما .

وكانت أعماله تمثل أثينا خير تمثيل إبَّان القرن الخامس قبل الميلاد[9]، أي ما أُطلق عليه العصر الذهبي. وقد غطَّت حياة سوفوكليس نشوءَ الإمبراطورية الأثينية وازدهارها وانهيارها [10].

8 - انظر المرجع السابق ، ص 319.

9 - انظر المرجع السابق ، ص 250.

وبسبب انتماء سوفوكليس إلى أسرةٍ ثريةٍ ، فقد توافرت له كلُّ سبل الحياة الهانئة والتعلُّم الجيد؛ فقد تعلَّم الموسيقا والرقص والغناء والرياضة، وتتلمذ على لامبروس أشهر العازفين والمؤلِّفين في ذلك العصر. وكان سوفوكليس بارعاً في كلِّ هذه المجالات. ونظراً لتفوقه في مجال الغناء، فقد اختير قائداً للجوقة التي أدَّت نشيد النصر على الفرس في موقعة ماراثون، ولمَّا يتجاوز عمره الثامنة [11].

وقد بدأ ممارسة كتابة المسرح في سنٍّ مبكرةٍ من عمره ، ففي عام 468 ق.م. بدأ يتقدَّم بمسرحياته للمسابقات وعمره آنذاك لم يتجاوز الثامنة والعشرين. وكان منافسه أيسخولوس، الذي عُرف بأبي التراجيديا. وقد فاز الشاعر الشاب على منافسه الأسنِّ، وكان هذا النصر الأدبي نقطة انطلاق سوفوكليس إلى المجد والشهرة[12].

وقد استمرَّ في إنتاجه المسرحي حتى أواخر حياته التي تجاوزت التسعين عاماً. واستطاع خلال حياته الفنية أن يفوز بالجائزة الأولى ثماني عشرة مرةٍ في مهرجانات ديونيسوس التي كانت تُقام في أثينا ، كما فاز عدَّة مراتٍ كذلك في مهرجانات الليناية. وقلَّما نال الجائزة الثانية. وقد رُوي أنَّه نال الجائزة الثالثة، والتي تعني الإخفاق والخسارة. ومن تلك الإخفاقات القليلة التي مُني بها في حياته، إخفاقه في عرض مسرحية " أوديب ملكاً " حين هزمه فيلوكليس ابن أخي أيسخولوس. ومما يدعو للغرابة في هذه الرواية أن أعظم مسرحيات سوفوكليس وأروعها - كما يشير إلى ذلك أرسطو - قد لاقت الإخفاق في عصرها[13].

---

10 - انظر المرجع السابق ، ص 252.

11 - انظر المرجع السابق ، ص 250 وما بعدها .

12 - انظر المرجع السابق ، ص 251.

13 - انظر المرجع السابق نفسه ، وانظر أيضاً بدوي ، عبد الرحمن : تراجيديات سوفقليس ، المرجع السابق ، ص 88 ،

ثانياً: توافرت لسوفوكليس إمكانية الاطلاع الواسع على التراث الإغريقي، وتتبع أحداث أسطورة أوديب ورواياتها المتعددة في ملحمتي هوميروس "الإلياذة" و"الأوديسا" وفي ملحمة "ثيبة"، وفي ملحمة "أوديب"، وفي معالجات الكُتاب المسرحيين الذين سبقوه إلى تناول هذه الأسطورة. فالباحثون يذكرون أنَّ أكثر من عشرة على الأقل من مؤلِّفي المآسي الإغريقية قد عالجوا أسطورة "أوديب" قبل سوفوكليس[14].

ودون ريب فإنَّ سوفوكليس حين أقدم على كتابة مسرحية "أوديب ملكاً"، كانت الأسطورة بكلِّ تفاصيلها ودقائقها ماثلةً وحاضرةً في وعيه. وعلى الرغم من اتِّفاق سوفوكليس مع مَنْ سبقه من أولئك الشعراء على العناصر الأساسية في الأسطورة، فإنَّه - دون شك - لم يكن مقلداً، أو مكرراً غيره، وإنما قدَّمها وعالجها بأسلوبه هو، كما قرأها ووعاها وفهمها .

ثالثاً: وعلى المستوى الفني فإنَّ سوفوكليس يمثِّل المرحلة الثالثة من تطور الدراما الإغريقية؛ وتجلَّى دوره في إيصال جهود السابقين بجهود اللاحقين، وسدِّ أوجه النقص في تجاربهم شكلاً ومضموناً[15]. إضافة إلى أنَّه زاد عدد الممثلين على خشبة المسرح، فأصبحوا ثلاثة ممثلين بدلاً من اثنين. وبهذا تقلَّص دور الجوقة في المسرحية السوفوكلية، وأصبح الحوار بين الشخصيات أكثر حيوية وأشدَّ جذباً بالنسبة للجمهور[16]. وقد مارس سوفوكليس بنفسه التمثيل والإخراج المسرحي، وتصميم المشاهد الخلفية في المسرح واختيار الموسيقا المصاحبة للعرض المسرحي وكذلك اختيار الألبسة المناسبة للمثلين، واستخدام الأحذية البيضاء التي ينتعلها الممثلون، وإدخال العصا التي تعلوها انحناءة ويحملها أكثر الشخصيات، وكذلك رفع عدد أفراد

14 - انظر المرجع السابق ، ص 88 وما بعدها .

15 - انظر عتمان ، أحمد : الشعر الإغريقي تراثاً إنسانياً وعالمياً ، مرجع سابق ، ص 255.

16 - انظر المرجع السابق ، ص 255 وما بعدها.

الجوقة من اثني عشر إلى خمسة عشر . وعلى الرغم من كون هذه التغييرات تبدو صغيرة أو ثانوية فإنَّها تدلُّ على اهتمام سوفوكليس اهتماماً كبيراً في تقديم عرضٍ مسرحيٍّ مناسبٍ من حيث الشكل الخارجي [17].

وقد تخلّى سوفوكليس عن البنية الثلاثية التي كانت سائدةً في المسرحيات الأيسخولية؛ فقد صار يُقدِّم كلَّ مسرحيةٍ مستقلةً عن الأخرى في موضوعها. والسبب في ذلك يعود إلى اختلاف الرؤية المأسوية لدى كلٍّ من الشاعرين [18].

وتجنَّب كلَّ ما هو فوق مستوى البشرية واقترب من كلِّ ما هو آدمي، متحاشياً في كلِّ ذلك الأساطير البدائية والغامضة وتلك التي تلعب فيها الآلهة أدواراً أساسية، ومقترباً من الطبيعة البشرية[19]. وعلى حدِّ تعبير أرسطو فإنَّ سوفوكليس ((يرسم البشر كما ينبغي أن يكونوا، أمَّا يوربيديس فيصورهم كما هم (في الواقع)))[20].

ولعلَّ أهم ما يميز سوفوكليس من غيره من كُتَّاب المأساة الإغريقية، وممن جاء بعده، أنَّه كان يعتني ((بالأحداث الأسطورية التي يعرضها على المشاهد في مسرحياته ويحاول جاهداً أن يجعلها مقبولةً ومعقولةً. أمَّا ما يسبق بداية الحدث الدرامي ويقع خارج إطاره فلا يبذل الشاعر نفس العناية إزاءه بل يقبله حتى لو كانت بعض أحداثه غير معقولةٍ. فمثلاً أسطورة أوديب تتضمن بعض الأحداث التي لا يمكن تصديقها، إن حكَّمنا العقل والمنطق ولا يحاول سوفوكليس نفسه أن يبررها أو يبسطها، وإنمَّا يقبلها دون أن يعد لها مادامت تقع قبل بداية الحدث الدرامي في مسرحية "أوديب

17- انظر المرجع السابق ، ص 58 . وانظر كذلك بدوي ، عبد الرحمن : تراجيــديات ســوفقليس ، المرجع السابق ، ص 20

18 - انظر عتمان ، أحمد : المرجع السابق ، ص257.

19 - انظر المرجع السابق ، ص259.

20 - نقلاً عن المرجع السابق ، ص 270 . وانظر كذلك بدوي ، عبد الرحمن: تراجيديات سوفقليس، المرجع السابق ، ص 9.

ملكاً". ولكن ما إن تبدأ المسرحية وتتوالى مشاهدها حتى يجد المتفرج نفسه متابعاً لها بشغف دون أن يشغله التساؤل حول الأحداث غير المعقولة التي سبقت هذا الحدث الدرامي المعقول. وهكذا أفلح سوفوكليس فيما فشل فيه المحدثون والمعاصرون ممكن قلَّدوه أو عارضوه في هذه المسرحية ... ومنهم كورني وفولتير وأندريه جيد وتوفيق الحكيم وغيرهم . لقد حاولوا أن يعطوا تبريراً عقلانياً لأحداث الأسطورة التي وقعت قبل بداية المسرحية فلم يحققوا شيئاً سوى أنَّهم لفتوا أنظار الجمهور لمثل هذه الوقائع الأسطورية التي لا تقبل التصديق))[21].

إنَّ هذه الميزات التي اتَّصف بها سوفوكليس غيضٌ من فيضٍ. فحياته الطويلة، وخبرته الغنية الواسعة في عالم المسرح جعلت منه شاعراً تراجيدياً متميزاً في عصره وفي العصور اللاحقة .

وإذا علمنا أنَّ ما وصلنا من تراث الشاعر الفني قليلٌ بالقياس إلى ما كتبه في حياته، وأنَّ هذا القليل الذي وصلنا يُعدُّ من أروع ما كُتب في المسرح التراجيدي، وأنَّه عرَّفنا بعظمة هذا الشاعر ومكانته في المسرح الإغريقي والعالمي. فما بالنا لو أنَّ تراثه كله وصل إلينا ؟[22]

لقد وصل إلينا من أعمال سوفوكليس سبع مسرحياتٍ كاملةٍ فقط، هي : أنتيجونا، بنات تراخيس، آياس، أوديب ملكاً، إليكترا، فيلوكتيتس، أوديب في

21 - المرجع السابق ، ص 262 وما بعدها .

22 - يذكر الباحثون أن ما كتبه سوفوكليس من أعمال مسرحية تراوحت ما بين 104 إلى 130 مسرحية ، لم يصلنا منها كاملاً سوى سبع مسرحيات فقط . انظر بدوي، عبد الرحمن: تراجيديات سوفقليس، المرجع السابق، ص 10 وما بعدها، وانظر كذلك عتمان، أحمد : الشعر الإغريقي تراثاً إنسانياً وعالمياً ، مرجع سابق ، ص 258 .

كولونوس. وقد تُرجمت هذه المسرحيات إلى لغات كثيرة، ومنها لغتنا العربية[23]. واستفاد منها كتاب المسرح ونقَّاده. كما أنَّ كثيراً من هؤلاء المسرحيين قلَّدوا سوفوكليس وعارضوه في أعماله. ومن أعماله التي لاقت اهتماماً كبيراً وعنايةً فائقةً لدى هؤلاء مسرحية "أوديب ملكاً" التي تُعدُّ المثال الذي احتذاه المسرحيون اللاحقون بوصفها العمل المسرحي الوحيد الذي وصلنا عن قصة أوديب وأسطورته من المسرح الإغريقي[24]؛ ذلك أنَّ ما كتبه أيسخولوس ويوربيديس وغيرهما من كُتَّاب المآسي عن هذه الأسطورة ضاع وفُقد، ولم يصلنا منه إلاَّ شذراتٌ أو بعض الأخبار المبثوثة في كتب التراث الإغريقي .

ويذكر الباحثون أنَّ هناك كثيراً من الكُتَّاب والمسرحيين قلَّدوا سوفوكليس وعارضوه في مسرحيته هذه، وذلك ابتداءً من الشعراء اللاتينيين وحتى القرن العشرين[25].

23 - ترجم طه حسين ست مسرحيات منها، وهي : الكترا، إيــاس ، أنتيجونــا، أويــدبيوس ملكــاً، أويدبيوس في كولولنا، فيلوكتيتيس، انظر سوفوكليس ، من الأدب التمثيلي اليوناني ، ترجمة طه حسين، دار العلم للملايين، بيروت، ط 3 ، 1981 . كما ترجم عبد الرحمن بدوي هــذه المــسرحيات كاملــة ونشرها في كتاب: تراجيديات سوفقليس ، مرجع سابق . وترجم مسرحية "أوديب ملكاً" علي حــافظ، مرجــع ســابق . كما ترجم هذه المسرحية أنطوان عبد الله ، انظــر هــذه الترجمــة فــي كتــاب : سوفوكليس، الملك أوديب، ترجمة أنطوان عبدالله ، ترجمة قسم الدراسات والترجمة ، دار الأنـــوار، دمشــق، 2007 . وقام عمار أحمد حامد بترجمة هذه المسرحية أيضاً ونشرها في كتاب : سفوكليس: الملك أوديب، دار العائدي للنشر والدراسات والترجمة ، دمشق ، ط 2 ، 2005 . ودون ريب هنــاك ترجمات كثيرة لهذه المسرحية والمسرحيات الأخرى .

24 - انظر حسين، طه: المقدمة التي كتبها طه حسين في : جيد ، أندريه: أوديب ، ثيسيوس، ترجمة: طه حسين، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط 5 ،1985 ، ص 20 .

25 - انظر للمزيد حول من ألَّف وحاكى أو عارض سوفوكليس في مسرحيته "أوديب ملكــاً" يمكــن الرجوع إلى الأعمال الآتية: المقدمة التي كتبها طه حسين في: جيد، أندريه: أوديب، ثيسيوس، المرجع

وعلى الرغم من كلِّ هذه المحاولات والجهود التي بذلها هؤلاء ابتداءً من سينيكا الشاعر اللاتيني وحتى آخر مَنْ كتب في هذه الأسطورة، فإنَّها بقيت دون مستوى إبداع سوفوكليس، ولم يستطع أحدٌ منهم مجاراته، أو مساواته أو التفوق عليه في عمله. لقد أخفق أغلبهم أمام سوفوكليس. وقد رأى الدارسون أنَّ سبب هذا الإخفاق يعود إلى الأمور الآتية :

أولاً: ابتعاد معظمهم عن نصٍّ مسرحية سوفوكليس وخلطهم بينها وبين الأسطورة.

ثانياً: ابتعاد بعضهم عن موضوع قصة أوديب الأساسي واهتمامهم بالبيئة المحلية التي عاشوا فيها وكتبوا لها [26].

ثالثاً: إغراقهم في التجديد والتغيير وإدخال عناصر جديدة على الموضوع الأساسي للقصة [27].

رابعاً: محاولتهم إعطاء تسويغٍ عقليٍّ لأحداث الأسطورة التي وقعت قبل بداية المسرحية. وهذا ما لم يفعله سوفوكليس في مسرحيته [28].

السابق، ص 17 وما بعدها. وكذلك انظر عتمان، أحمد: المصادر الكلاسيكية لمسرح توفيق الحكـيم، المرجع السابق ، ص 56 وما بعدها. وأيضاً الحكيم، توفيق: الملك أوديب ، مكتبة الآداب (القـاهرة)، دون ناشر أو سنة الطبع ، ص 44 وما بعدها . وانظر كذلك إسماعيل ،عز الدين : قضايا الإنسان في الأدب المسرحي المعاصر، دراسة مقارنة ، المرجع السابق ، ص 96 وما بعدها . وانظر أيضاً : عبد الرحمن محمد ، إبراهيم : النظرية والتطبيق، دار العودة ، بيروت ، 1982، ص190 وما بعدها .

26 - انظر حسين، طه: مرجع سابق، ص 23 وما بعدها . وانظر كذلك صالح ، عبد المطلب: مباحث في الأدب المقارن، دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، 1987، ص51 .

27 - انظر حسين ، طه : المرجع السابق، ص 24 وما بعدها .

28 - انظر عتمان ، أحمد : الشعر الإغريقي تراثاً إنسانياً وعالمياً ، مرجع سابق ، ص 263 .

خامساً: إخضاعهم هذه المأساة إلى الثقافة والعقيدة والإيديولوجيا التي يؤمنون بها، أو التي تناسب بيئاتهم كما فعل توفيق الحكيم وعلي أحمد باكثير وعلي سالم [29].

سادساً: لم يستطع أحدٌ من هؤلاء الكُتَّاب والمسرحيين ((أن يخلق هذه الروح التي كانت تَخْلَعَ على المسرح اليوناني طابعه الديني والفلسفي الشعري، فإنَّ انطفاء هذا الشعور الديني هو الذي خنق الأسطورة فأزهقت في يد الذين تناولوها من بعد، فإنَّ كلاً من هؤلاء الذين حاولوا محاكاة صوفوكليس قد خضعوا للذوق الذي يحيط بهم، والمثل الأعلى السائد في المجتمع الذي يكتبون له فأخذ الكُتَّاب يجوزون الأسطورة وينحرفون بها بما يلائم آراءهم الخاصة أو أحلامهم الشخصية، فإذا باللحن البدائي الأول تصوغه نغمات الشعور الإنساني الذي يختلف باختلاف العصر والذوق والثقافة والمجتمع))[30] .

كلُّ هذه الأسباب قد تكون مقبولةً ومعقولةً إلى حدٍّ ما في إخفاق هؤلاء الذين حاكوا سوفوكليس أو استلهموه. إلاَّ أنَّ المرء لا يمكنه أن يُسلِّم كلياً بهذه الأسباب ويركن إليها، خاصةً وأنَّنا أمام مسرحيةٍ هي من أروع ما كُتب في تاريخ المسرح العالمي، تثير القارئ دوماً وتدفعه إلى التساؤل المستمرِّ عن سرِّ عظمتها، وسرِّ قوتها وخلودها، وعن سبب إخفاق الآخرين أمامها .

---

29 - انظر السيد ، شفيع : فصول من الأدب المقارن، دار الفكر العربي، القــاهرة 1990، ص 61 وما بعدها، ص 79 وما بعدها ، ص 104 وما بعدها .

30 - العشماوي ، محمد زكي : دراسات في النقد المسرحي والأدب المقارن ، دار النهضة العربيــة ، بيروت ، 1983 ، ص 68 .

فقد رُويَ أنَّ مسرحية "أوديب ملكاً" حين عُرضت لأول مرةٍ على خشبة المسرح[31] لم تفز بالجائزة الأولى . والمنافس منْ هو ؟ إنَّه - كما يذكرون - فيلوكليس ابن أخي أيسخولوس ، الذي ربَّما يكون قد دخل المسابقة بتراجيديات عمِّه الراحل. فإذا كان سوفوكليس هزم أيسخولس نفسه، وإذا كانت هذه المسرحية من أروع مسرحيات سوفوكليس كما يقول أرسطو[32]، فهل يُعقل أن يُهزم عمل كهذا يمتلك كلَّ مقوِّمات المسرحية التراجيدية، ولصاحبه باع طويلٌ وخبرةٌ غنيةٌ في عالم المسرح أمام منْ هو أقل خبرة وشهرة؟ قد يكون هذا حصل فعلاً. ولكن ما سبب الإخفاق الحقيقي؟ إنَّ معرفة سبب إخفاق سوفوكليس في عرض مسرحيته هذه هو المفتاح الذي يقودنا إلى سرِّ عظمتها وروعتها وخلودها. لماذا أخفــق سوفوكلس؟ ولماذا لم يقف الباحثون عند هذا التساؤل المشروع ؟ ولم يبحثوا عن الأسباب الحقيقية الكامنة وراء هذا الإخفاق ؟

حقاً لقد اجتهد هؤلاء الدارسون والباحثون في إضاءة جوانب مهمةٍ من هذه المسرحية، وقارنوها بغيرها من الأعمال التي حاكتها وعارضتها، وتنوَّعت مستويات قراءاتهم بتنوع اهتماماتهم وثقافاتهم ، أجاد بعضهم، وأخفق الكثير منهم، وبعضهم ردَّد كلام مَنْ سبقه دون تدبُّرٍ وتأنٍ. وأحسب أنَّي لا أبالغ هنا إن قلت إنَّ معظم هذه الدراسات قصَّرت في الوصول إلى سرِّ عظمة هذا العمل، وكان يُخيَّل إليَّ في كثيرٍ من الأحيان أنَّ هؤلاء الدارسين لم يقرؤوا نصَّ مسرحية سوفوكليس قراءةً واعيةً متأنيةً وينفذوا إلى أسراره الكثيرة، وما أراد سوفوكليس أن يقوله فعلاً من خلال نصِّه نفسه. لقد تتبع معظمهم الأسطورة نفسها في دراساتهم متناسين نصَّ سوفوكليس، وقلَّما

31 - يُرجِّح الباحثون أن تمثيل هذه المسرحية كان في حوالي عام 425 ق.م.؛ أي فــي الــسـنوات الأخيرة من حياة سوفوكليس . انظر بدوي ، عبد الرحمن : تراجيديات سوفقليس ، المرجع الــسابق ، ص 13.

32 - انظر عتمان ، أحمد : الشعر الإغريقي تراثاً إنسانياً وعالمياً ، مرجع سابق ، ص 251 .

يجد المرء في دراساتهم تحليلاً عميقاً لشخصية من شخصيات العمل نفسه؛ لقد استأثرت شخصية " أوديب " والآثام التي ارتكبها في حياته جُلَّ اهتمامهم، متناسين أو مُغْفلين تلك الشخصيات المهمَّة في المسرحية؛ كشخصية الملك لايوس وزوجته الملكة جوكاستا، وشخصيتي الراعيين، وشخصية الكاهن تريسياس، وشخصية كاهن زوس، وشخصية الملك بوليبوس وزوجته الملكة ميروبا، وشخصية كريون، وآلهة معبد دلف والجوقة وشخصية الحيوان على باب ثيبة. لقد غُيِّبت كلُّ هذه الشخصيات في أغلب هذه الدراسات التي تناولت هذه المسرحية، وكأنَّ المسرحية لا شخصية فيها إلاَّ شخصية أوديب فقط. لقد ركَّزوا جهودهم على فكرة الأسطورة العامَّة، وليس على أفكار سوفوكليس، وعالجوا الموضوع دون الدخول إلى أعماقه، وركَّزوا جهودهم على الذنب الذي ارتكبه "أوديب" ، والكشف عن ماهية الصراع في هذه القصة، الذي تباينت آراؤهم فيه وتبدَّى عندهم بأشكالٍ مختلفة؛ فتارةً نراه صراعاً بين سلطان القضاء وحرية الإنسان[33]، وتارةً أخرى نراه صراعاً بين الإنسان والقوى الإلهية[34]، وتارةً ثالثةً نراه صراعاً بين الواقع والحقيقة[35]، ويراه آخرون صراعاً بين الماضي والحاضر أو صراعاً بين الحقيقة الظاهرة والحقيقة الخفية[36].

لقد أشرت من قبل إلى أنَّ سوفوكليس أحاط بأسطورة أوديب إحاطةً كاملةً وواعيةً، وتتبعها تتبعاً دقيقاً، وتأنَّى في الكتابة فيها، وأعمل النظر فيها طويلاً، وقرأها مرات عديدةً وقلَّبها على وجوهها كلِّها، وقرأ عصره فكرياً واجتماعياً وخلقياً ودينياً وسياسياً قراءة المتبصرِّ العارف؛ ذلك العصر الذي بدأت تباشير العقلية العلمية تظهر

33 - انظر حسين ، طه ، المرجع السابق ، ص 20 وما بعدها وص 27.

34 - انظر الحكيم ، توفيق ، المرجع السابق ، ص 34، 39، 43 . وانظر كذلك عــصمت حمــدي ، محمد : الكاتب العربي والأسطورة ، المرجع السابق ، ص 69 وما بعدها .

35 - هكذا رآه توفيق الحكيم ، انظر المرجع السابق ، ص 43 .

36 - انظر إسماعيل ، عز الدين ، المرجع السابق ، ص 71، 74 .

فيه، وأصبحت الفلسفة علماً قائماً بذاته وتعتمد على المناهج العقلية [37]، وفهم إنسان عصره واهتماماته ومشاكله وهمومه وقلقه. ودون ريب كان سوفوكليس يتساءل كثيراً في قرارة نفسه عن الجديد الذي سيقدِّمه للجمهور، وهل ستلقى محاولته استحساناً أم رفضاً ؟ إنَّه أمام تحدٍّ كبير. فالجمهور خبر هذه القصة وعرفها، وهناك معالجاتٌ كثيرةٌ لها سبقته. ووجد أنَّ السبيل الوحيد لإيصال أفكاره وفلسفته في الحياة إلى الجمهور ستكون عبر هذا العمل الفني المتصل بموضوع إنساني متعدد الأبعاد، إنه موضوع الإنسان نفسه، سرِّ هذا العالم وجوهره. هذا الإنسان الذي لم يعد يؤمن بالأساطير والخرافات التي كانت سائدة، وشغلته زمناً طويلاً، وأنَّ العودة إلى العقل هي السبيل الوحيد في حياة الإنسان وتصريف شؤونه كلِّها. وأنَّ من حقِّه أن يعيد النظر في علاقته بنفسه أولاً، وفي علاقته بما يحيط به في الكون ثانياً. وليتبيَّن أين موقعه الحقيقي في هذا العالم، وما هو دوره فيه ثالثاً.

لقد رأى سوفوكليس أنَّ المأساة الحقيقية تكمن في تغييب الإنسان عقله، وفي جهله نفسه وقدراته وكيفية توظيفها لخدمته، وأنَّ جوهر الصراع الحقيقي هو بين الإنسان ونفسه، وليس بين الإنسان وما يحيط به من مخلوقات أو أشياء، أو ما يعلوه قدرةً، أي بين الإنسان والآلهة كما كان يرى كثيرٌ من المُحلِّلين. فبقدر ما يستخدم الإنسان عقله يكون أكثر قدرةً على التوازن مع نفسه ومع غيره، وبقدر معرفته بقدراته التي يمتلكها وكيفية تسخيرها تسخيراً سليماً وصحيحاً في حياته يكون قد حقَّق التوازن أولاً مع نفسه. وهذا التوازن هو الذي يضمن له التوازن مع مَنْ أو ما يحيط به ثانياً. لم يغب عن سوفوكليس ما يمتلكه الإنسان من عواطف ورغبات وميول وضعف. وهذه كلُّها يجمعها القلب، فالإنسان قلبٌ وعقلٌ، وبقدر ما يوفِّق الإنسان بين هذين الشيئين اللذين يكونانه يكون متوازناً مع ذاته أولاً ومع غيره ثانياً. فالتوازن هو

37 انظر العشماوي ، محمد زكي ، مرجع السابق ، ص 67 .

الفكرة الرئيسية التي ركَّز عليها في مسرحيته من أولها إلى آخرها، ولقد رأى أنَّ العقل هو الأكثر قدرةً على جعل الإنسان متوازناً. كما رأى أنَّ غياب العقل يحطِّم الإنسان ويشلُّ قدراته وتفكيره ويجرُّ عليه الويلات الكثيرة. ولم يكن سؤال الحيوان الرابض على باب مدينة ثيبة سؤالاً عابثاً لا قيمة له، إنَّه السؤال الجوهري الذي لم يُعره الناس الانتباه، أو لم يلتفتوا إليه أو يفكروا فيه من قبل ولم يعرفوا معناه وأسراره . إنَّه الإنسان سيِّد الكون. والإنسان لا يكون إنساناً حقيقياً إلاَّ حين يستخدم عقله في تدبير شؤون حياته. وليس من العبث في شيءٍ أن يبدأ سوفوكليس أول مشهد من مسرحيته بالحديث عن الإنسان. لقد أدرك سوفوكليس المأساة الحقيقية لشخصيات الأسطورة كلِّها وأين تكمن؛ فهي تكمن في عقولهم جميعاً، هذه العقول التي لم تُوظَّف توظيفاً صحيحاً في حياتهم، فجرَّت عليهم المصيبة تلو المصيبة. وأدرك أنَّ عرضها سيقود إلى اكتشافاتٍ أخرى تمسُّ جوهر الإنسان وحياته وتفكيره، وتقوده إلى إعادة النظر في علاقته مع نفسه أولاً، ومع الكون من حوله ثانياً، وتقوده إلى تغييرات جديدة لم يعتدها أو يألفها من قبل، بل ربما ستقلب حياته رأساً على عقب .

وبخبرته العالية في فنِّ التراجيديا اختار سوفوكليس إطاراً فنياً مناسباً لمعالجة هذه الأسطورة وبثِّ أفكاره وفلسفته هذه؛ لقد بدأ مسرحيته[38] من نقطةٍ مثيرةٍ ومهمَّةٍ في حياة أوديب ومملكة ثيبة؛ أي من استفحال أزمة الهلاك والموت وكارثة الأمراض والعقم التي أُصيبت بها مدينة ثيبة. مع محافظته على عناصر الأسطورة الأساسية من حيث الشخصيات والأحداث، دون أن يُغيِّر أو يُبدِّل شيئاً في شكلها الخارجي .

وعلى الرغم من أعجاب المشاهدين بالعرض الذي قدَّمه سوفوكليس في مسرحيته، فإنَّهم أحجموا عن إعطائه الجائزة الأولى لخروجه عن الأفكار الدارجة

38 - اعتمدت في هذه الدراسة على ترجمة طه حسين لمسرحية سوفوكليس لسببين مهمَّين؛ الأول: دقة الترجمة، والثاني: الأسلوب المشرق الذي تميز به طه حسين من غيره من المترجمين .

عندهم[39]، فهي أفكار جريئة جداً، تُمثِّل خروجاً عن المألوف والمعتاد في حياتهم الفكرية والدينية. لقد وضعهم سوفوكليس على المحكِّ العملي أمام أنفسهم، وهذا أمرٌ ليس من السهل الأخذ به أو قبوله. فكلُّ فكرٍ جديدٍ لابدَّ أن يلقى في بدايته الرفض لدى معاصريه، ويصطدم بالقديم المعتاد والشائع والمتوارث. وهذا ما كان مع سوفوكليس حين عُرضت مسرحيته. وإلى هذا يشير أحمد عتمان من أنَّ الروائع ((لا تحظى حتماً أو دوماً بالتقدير المناسب ساعة ظهورها وبين معاصريها الذين يتركون مهمَّة هذا التقييم الموضوعي للأجيال التالية))[40]. نعم لقد أخفق سوفوكليس أمام جمهوره، ولكنَّه تفوَّق على ذاته أولاً لقوله الحقيقة المخيفة، لقد واجه نفسه هو، وانتصر عليها، وتفوَّق على الفكر السائد والعادات والتقاليد التي عاش عليها هو وغيره زمناً طويلاً فانتصر. وانتصر ثانياً في نظر الأجيال اللاحقة بما قدَّمه من أفكار لا تزال آثارها باقيةً حتى الآن. هذا هو الإخفاق الذي حقَّق لسوفوكليس الشهرة والمجد، وهذا هو سرُّ عظمة هذا العمل، الذي لم يرَ فيه جمهوره حينذاك إلاَّ نوعاً من الخروج عن المألوف من أفكارٍ لا تناسبهم. وينطبق الأمر نفسه على مَنْ حاكاه واستلهم الأسطورة أو مَنْ درس هذه المسرحية؛ فليس بينهم من وضع يده على سرِّ هذا العمل، وليس بينهم من وقف عند رمزية الحوار وأهميته بين أوديب وكاهن زوس من جهة، وبين أوديب والكاهن تريسياس من جهة أخرى، وما ترمز إليه هاتان الشخصيتان. وليس بينهم من وقف عند رمزية الحيوان وسؤاله. والأهم من هذا وذاك تقصيرهم الكبير في تحليل شخصيات المسرحية ودور كلٍّ منها في هذا العمل. فكلُّ هذه الشخصيات أساسيةٌ في هذا العمل، ولا يمكن إغفال واحدةٍ منها، وهي في مجملها قابلةٌ للدراسة، وبمستوياتٍ متعددةٍ وبقراءاتٍ مختلفة. وعلى الرغم من أنَّ شخصية أوديب تبدو في الظاهر هي الشخصية الرئيسية، فإنَّها لا تبدو كذلك أمام المدقِّق والمتفحِّص للشخصيات الأخرى.

39 - انظر بدوي ، عبد الرحمن : تراجيديات سوفقليس، المرجع السابق ، ص 88.

40 - عتمان أحمد : الشعر الإغريقي تراثاً إنسانياً وعالمياً، مرجع سابق ، ص315.

فكلُّ شخصيةٍ من هذه الشخصيات مرشحةٌ لتكون شخصيةً رئيسيةً في العمل. ومن هنا فإنَّ دراسة هذه الشخصيات مجتمعةً أو منفردةً، وقراءتها قراءةً ممعنةً هو السبيل الناجح لفهم هذا العمل وكلِّ ما يتضمنه من أفكارٍ وعبرٍ أراد سوفوكليس أن يوصلها للجمهور أولاً وللمتلقي بصفة عامة ثانياً .

رابعاً : مسرحية " أوديب ملكاً " الرموز والدلالات

ومن هنا فإنَّه من الضروري أن يبدأ المرء بتتبع أفكار سوفوكليس وتجلِّياتها في مسرحيته من بدايتها. وأول هذه الأفكار تطالعنا في ذلك الحوار المهمِّ بين أوديب وكاهن زوس المتعلِّق بالوباء الذي ألمَّ بثيبة، وما جرَّه عليها من ويلاتٍ شملت ناسها ونباتها وحيواناتها. نرى كاهن زوس يقف أمام الملك أوديب ويتحدَّث إليه باسم أهل المدينة، ويدعوه إلى إنقاذهم مما هم فيه من بلاء ومعاناة قائلاً: ((...إنَّا لا نرفعك إلى مكانة الآلهة لا أنا ولا هؤلاء الأبناء من حولي حين نطيف بقصرك! ولكنَّا نراك أحقَّ الناس بأن نفزع إليك حين تلمُّ بنا الخطوب. فقد أنقذت مدينة كادموس ورفعت عنها تلك الضريبة التي كنَّا نؤدِّيها إلى المغنية القاسية*. دون أن نعينك على ذلك بشيءٍ أو نُعلمك من أمره شيئاً. أعانك فيما نعتقد جميعاً بعض الآلهة فأصلحت أمرنا، ورددت حياتنا إلى الاستقامة والاعتدال. وها نحن أولاء اليوم، نعود إليك ضارعين متوسِّلين أن تعيننا وتأخذ بأيدينا، سواء أعانك على ذلك وحي الآلهة، أو أشار عليك فيه بعض الناس، فإنِّي أرى أنَّ مشهورة أصحاب الرأي والتجربة هي التي تنفع وتغني في مثل هذه المواطن. هلمَّ يا أحكم الناس أصلح أمر المدينة، فكِّر في شهرتك وما ينبغي لك من حسن الأحدوثة. إنَّ هذا البلد يسميك اليوم منقذه بما قدَّمت إليه فيما مضى. فاحرص على أن لا تذكر في يوم من الأيام أنَّك أنقذتنا مرةً لنهوي في المكروه مرةً أخرى. بل أنقذ وطننا وارفع أمره. لقد أرشدك الآلهة إلى إنقاذنا فيما مضى فكن اليوم

* يقصد " بالمغنية القاسية " ذلك الحيوان الذي كان يربض على باب مدينة ثيبة وقتله أوديب .

كما كنت أمس. فقد أرى أنَّه إذا أُتيح لك أن تحكم هذه الأرض، فالخير في أن تحكمها معمورةً لا مقفرةً. ما قيمة الأسوار، وما قيمة السفن إذا خلت ولم يوجد من يلوذ بها ويحتمي من ورائها؟))[41].

فهو يرى أنَّ الآلهة تعين الإنسان وترشده في بعض المواطن، ولكن الاعتماد الأساسي يكون على الإنسان وقدرته في حلِّ مشكلاته وما يكون سبباً في شقائه وتعاسته وتعكير صفو حياته. وهو يرى -كما يرى الناس- أنَّ أوديب تمكَّن من قتل الحيوان بمعونة الآلهة وإلهامها، وليس بقدرة أوديب الجسدية والعقلية. وهذه من وجهة نظر سوفوكليس لا تُقلِّل من قدرات الإنسان الخاصة، فالإنسان مع ما يتمتع به من قدراتٍ بحاجةٍ دوماً إلى من يرشده ويُلهمه لاتخاذ قرارٍ ما أو تنفيذه. ويرى الكاهن بحكمته التي استقاها من تجربته ومعايشته أنَّ لا قيمة لأرض أو أيِّ شيءٍ ما لم يكن الإنسان موجوداً فيه. فالإنسان هو القيمة العليا. ووجوده هو أساس كلِّ شيءٍ، والحرص عليه سليماً معافى هو الهدف الأسمى. فمفهوم الإعمار الذي يقصده الكاهن هنا، وسوفوكليس طبعاً، هو الإنسان نفسه، فلا إعمار من غير إنسان، ولا حضارة من غير إنسان، فأن تكون الأرض معمورةً، يعني أن يكون الإنسان موجوداً، أن تُعْمِرَ الإنسان وتُصْلِحَه من الداخل والخارج، وتبنيه بناءً سليماً. والقفر يعني الهلاك والفناء وعدم الوجود. إذن هو يريد من الملك أوديب شيئاً مهمَّاً، هو أنَّ عليك أيُّها الملك بالإنسان أولاً وأخيراً، فإذا أردت أن تحكم الناس فما عليك إلاَّ أن تُصلح الناس، وتسعى إلى تحقيق العدل والمحبة .

هذه الفكرة الأولى التي يريد سوفوكليس أن يطرحها، وهي إعمار الإنسان. فإذا كنت حاكماً عادلاً واضحاً مع مجتمعك محباً له، فإنَّ هذا يعني أنَّك بنيت إنساناً حقيقياً، بنيت دولةً أو حضارةً، فلا حضارة تُبنى إلاَّ بالإنسان ولا دولة تقوم إلاَّ به.

41 - سوفوكليس : من الأدب التمثيلي اليوناني ، ترجمة : طه حسين . مصدر سابق ، ص 192.

وبقدر ما تكون قريباً من شعبك، يكون شعبك قريباً منك، وبقدر ما تحبُّه يُحبُّك. أمَّا إذا جعلت الإنسان ينفر منك ويعاديك ويبغضك، أو كنت قاسياً معه، متعصباً لأفكارك وآرائك وظالماً، فلن تجد شيئاً معموراً. فالإنسان حينئذ لن يكون قادراً على محبتك وطاعتك. وهذا يعني القفر والهلاك، فإذا أردت أن تحكم، فاحكم بالعدل، أحبَّ الناس، يُحببك الناس .

وشيءٌ آخر يريد سوفوكليس أن يوصله هو أنَّ على الإنسان أن يستشير أصحاب الرأي والخبرة في الحياة، وخاصةً في الأزمات الصعبة، فمهما كان الإنسان حكيماً وعارفاً، فإنَّه لن يستطيع بمفرده وبخبرته مهما كانت أن يعالج أمراً من أمور الحياة الصعبة. فإذا استغنى عن الآخرين هلك، وإذا اقترب منهم سلم .

وفي حديث أوديب لشعبه نلمح فكرة المسؤولية، مسؤولية الحاكم تجاه شعبه، فمسؤوليته أكبر من مسؤولية أيِّ شخصٍ آخر، فالحاكم الناجح في نظره هو الحاكم الذي يسهر على راحة شعبه، ويألم للجميع ويحزن للجميع، ويشفق عليهم ((أيها الأبناء إنَّكم لخليقون بالإشفاق. إنَّ الذي تطلبونه ليس غريباً بالقياس إليَّ فإنِّي أعرفه، نعم أعرفه حقَّ المعرفة. لست أجهل أنَّكم تألمون جميعاً، ولكن ثقوا بأنَّ ليس بينكم من يألم كما آلم. كلُّ واحدٍ منكم يألم لنفسه لا يتجاوزه الألم إلى غيره، أمَّا أنا فإنِّي آلم لثيبة، وآلم لك ولنفسي، وإذن فإنَّكم لا توقظون بهذا الحديث منِّي رجلاً نائماً، تعلمون أنَّي سفحت كثيراً من الدمع وأنَّي فكَّرت في كثيرٍ من الوسائل للنجاة. فلم أجد إلاَّ وسيلةً واحدةً ظفرت بها بعد طول التفكير، فلم أتردد في ابتغائها والالتجاء إليها ...))[42]. وهذه الوسيلة التي التجأ إليها هي الاستعانة بالآلهة. وهذا ما لم يُرِدْه الكاهن، الذي رأى أنَّ عليه أن يستشير مَنْ لهم الرأي والخبرة أولاً، وإذا أعيته الحيلة فعليه ساعتئذٍ الالتجاء إلى الآلهة. فاللجوء إلى الآلهة هو آخر ما يجب أن يفعله الإنسان ويفكر فيه.

42 - المصدر السابق ، ص 193.

وهذه الفكرة أراد سوفوكليس أن يقدِّمها إلى متلقيه. أي أنَّ عليك أن تعتمد على نفسك أولاً، وتفتِّش عن كلِّ السبل التي تساعدك في حياتك، وتكتشف قدراتك التي وُهبت إيَّاها، وتسأل من لديهم الخبرة في حلِّ أمور حياتك، واجعل الآلهة ملجأك الأخير حين تُسدُّ الطرق في وجهك. أي أعمل عقلك وفكرك، ولا تكن عالة دوماً على الآلهة .

لقد أشار عبد الرحمن بدوي إلى أنَّ سوفوكليس ((لم يشغل نفسه بالمشاكل الدينية مثلما فعل أيسخولوس، ولا بالمشاكل العقلية والاجتماعية مثلما فعل يوريبيديس. ذلك لأنَّه كان فناناً اقتصر على عرض الشخصيات الإنسانية والمشاكل الإنسانية البحتة))[43]. إنَّ هذا الكلام لا يُمثِّل الحقيقة أبداً، ولا أرى ما ذهب إليه بدوي وغيره من أنَّ سوفوكليس لم يهتمَّ بهذه الأمور. فالمدقِّق في هذه المسرحية يرى أنَّ سوفوكليس قد تناولها بأسلوبه ورؤيته البعيدة، وربَّما كان أكثر وعياً من أيسخولوس ويوريبيديس في تناول هذه القضايا، لقد أراد أن يُبيِّن الفارق بين الإنسان وبين الإله، وأنَّ لكلٍّ منهما نظامه الخاص، وأراد أن يعيد لكلٍّ منهما دوره الحقيقي، وأن يعيد التوازن إلى العلاقة بينهما؛ فهذه العلاقة قد فُهمت على مرِّ العصور فهماً خاطئاً، فهي ليست علاقة عداوة وخصومة، أو صراعٍ، وإنَّما هي علاقة احترام، فالآلهة ليست عدوةً للإنسان، ولن تكون في يومٍ من الأيام كذلك. فللآلهة قوانينها العلوية الخاصة، التي تجعلها ترى ما لا يراه من هم أقلُّ منها شأناً، وهي تدرك ما لا يدركه البشر، وللإنسان قوانينه الوضعية الخاصة به، التي تجعله يتعايش مع غيره من ناسٍ أو مخلوقاتٍ أو جماداتٍ، وله قدراتٌ تُمكِّنه من العيش بسلامٍ وأمانٍ إن استغلَّها استغلالاً صحيحاً، وإلاَّ فإنَّه سيغدو غير منسجمٍ مع نفسه وما يحيط به إن أخلَّ بهذه الأمور، ويُحيل كلَّ شيءٍ يكون عقبةً في حياته إلى القوة العلوية. فسوفوكليس أراد هنا أن يعيد التوازن إلى هذه العلاقة، وأن يقول للإنسان عليك أن تُعمل عقلك وتجتهد في الحياة، ولا تكن عالة على غيرك.

43 - بدوي، عبد الرحمن: تراجيديات سوفقليس ، المرجع السابق ، ص 21 وما بعدها .

ولو تتبعنا مجريات أحداث المسرحية سنلاحظ هذه الأفكار تتردَّد باستمرارٍ، فهذه الجوقة التي استمعت إلى ما قاله كاهن زوس تُعجب بكلامه وتتضرع إلى الآلهة أن تزيل هذا الكرب عن المدينة، ونراها تُعبِّر من جهة أخرى، وبلسان الشاعر سوفوكليس، بكلامٍ يُؤكِّد ما ذهبنا إليه قبل قليل: ((واحسرتاه! إنِّي لأحتمل آلاماً لا تحصى. لقد سرت العدوى في الشعب كلِّه، وعجز العقل عن أن يخترع سلاحاً يذود به عن إنسان))[44]، وتضرع إلى الآلهة في أن تعين الخلق والحيوان والنبات.

إنَّ هذه الجوقة تمثِّل أصواتاً مختلفة من الناس؛ فهي تتحدث بما يجيش في صدور الناس من أفكار، بعضهم يرى الحقيقة وبعضهم يجهلها. إنَّهم حائرون أمام هذا المصاب الجلل الذي يحيط بهم وبمدينتهم. بعضهم يبحث عن ذاك العقل الذي عجز عن اختراع سلاحٍ، أي عن إيجاد مخرجٍ ينقذهم ممَّا هم فيه. فالعقل عاجز، أو ليس موجوداً، غائبٌ أو غُيِّب، وبعضهم يبحث عن هذا الملجأ في الآلهة، كما فعل أوديب من قبل، حين أرسل كريون لاستشارة الآلهة فيما هم فاعلون إزاء هذا البلاء العظيم. لكنَّ أوديب أدرك بحسِّه أنَّ هذا الدعاء لن يخلِّصهم ممَّا هم فيه، إذا بقوا هكذا يطلبون العون من الآلهة دون أن يحرِّكوا ساكناً أو يُعملوا عقولهم للخروج من هذه المشكلة وإيجاد قاتل لايوس كما أخبرتهم الآلهة. فزوال البلاء مرهونٌ بالكشف عن الآثم، والآثم موجودٌ بينهم، وما عليه هنا إلاَّ أن يُعمل عقله ويبحث عن القاتل. إنَّ المحاكمة التي عقدها أوديب لم تكن لو أنَّه لم يفكِّر تفكيراً سليماً ويستخدم عقله ووعيه من أجل الوصول إلى اكتشاف الحقيقة، إنَّه أمام أمرٍ عظيمٍ حلَّ بهم جميعاً، فكيف الخلاص منه؟ ليس أمامه إلاَّ أن يستنفر كلَّ طاقاته من أجل الوصول إلى الحقيقة، ولو تطلَّب الأمر الاستعانة بالكهنة الذين يعلمون شيئاً من الغيب فلا بأس في ذلك. إنَّه مهما كان يملك من قوةٍ وعقلٍ وحكمةٍ وسيادةٍ، فهو قبل كلِّ شيءٍ إنسانٌ، ابن بيئة فُرض عليها ما

44 - سوفوكليس : من الأدب التمثيلي اليوناني ، ترجمة : طه حسين . مصدر سابق ، ص 197 .

فُرض من جهلٍ وعاداتٍ وتقاليدٍ. المهمُّ أن يصل إلى الحقيقة ولو كلَّفه الأمر كلَّ شيءٍ، حتى نفسه، فهو لم يعد يبالي، هدفه الوصول بأيِّ ثمن إلى الحقيقة، حقيقة الآثم واكتشافه. لقد كان أوديب يعاني من قلقٍ دائمٍ، يؤرِّقه ليل نهارٍ، وهذا القلق لم يكن ظاهراً، وإنَّما كان خافياً، يعيشه في نفسه. إنَّه ذلك القلق القديم المتعلِّق بتلك النبوءة المشؤومة، فهو حتى الآن لم يقتل أباه، ولم يتزوج أمَّه، كما قال له كهنة معبد دلف. فمتى سيحصل ذلك؟ إنَّه يجهل المكان والزمان. ولكنه قدرٌ لا مفرَّ منه. ينتظره بخوفٍ ورهبةٍ، ويحسب له ألف حسابٍ، يُحسُّ المرء ذلك القلق والخوف، قبل أن يعلم بخبر وجود قاتل لايوس في المدينة وبعده، وأنَّه سبب البلاء الذي يعيشونه. ونلحظ ذلك القلق في كلامه حين طالت غيبة كريون في معبد دلف، لقد كان متلهفاً لسماع أيِّ خبرٍ من المعبد، ولمَّا طالت غيبة كريون، فكَّر كثيراً في سبب هذه الغيبة الطويلة، يريده أن يأتي وليكن ما يكون هذا الخبر، وهو مستعدٌّ أن يُنفِّذ أيَّ أمرٍ تطلبه الآلهة منه، المهمُّ أن يأتي كريون[45]. هذه اللهفة وهذا التوتر في حديثه يعكسان قلقاً داخلياً يعيشه أوديب. هو قلق الباحث عن المعرفة والحقيقة. وتظهر آثار هذا القلق في لهفته وإصراره الشديدين في البحث عن هوية القاتل. وقد نجح أخيراً في الوصول إلى ما يريد، اكتشف القاتل، الذي بسببه كان البلاء، وبسببه عمَّ الخراب أرجاء مملكته. من هو هذا القاتل؟ إنَّه أوديب نفسه، ذلك الشاب الذي يُمثِّل الحقيقة المرَّة، القاسية، إنَّه المعرفة نفسها، والعقل المُغَيَّب، والقلق الدائم في مجتمعٍ جاهلٍ، عاش زمناً طويلاً مُغَيِّباً عقله، مُقصِّراً في الوصول إلى المعرفة، التي تعني الأمان والسلام وراحة البال.

فأوديب يرمز إلى والعقل المعرفة، وهما أمران جليلان في الحياة، يتناقضان مع الجهل والتخلف، ولا يرضى بهما الكهنة والعرافون. لأنهما يشكِّلان تقويضاً لمكانتهما الاجتماعية، وتهديم القيم المتوارثة السائدة. إنَّ رمزية "انتفاخ القدمين" لها

45 - انظر المصدر السابق، ص193.

دلالتها العميقة في هذا السياق، نعم إنَّه يسير في طريقٍ وعرةٍ، مليئةٍ بالأشواك القاسية، طريق الصعاب، منذ ولادته، بل قبل أن يولد، إنَّ وجوده -كما تقول النبوءة- كارثة على أهله ومجتمعه. لذلك أرادوا قتله ووأده، ونفيه من الحياة والوجود. لكنه عاش، عاش مشوهاً منذ ولادته، شُوهت قدماه منذ الأيام الأولى لمولده، وبقي مشوهاً طوال عمره، لأنَّه ولد في مجتمع يرفض الجديد، يرفض العلم والمعرفة. حتى إنَّ فكره كان مشوشاً مضطرباً، نراه في لحظاتٍ حكيماً عاقلاً، وفي أحيانٍ كغيره من ناس مجتمعه، ويسلك سلوكهم في الحياة. لقد كان يجاهد نفسه والآخرين، ولكنَّه أخيراً انتصر على ضعفه وجهله الذي يعيقه، وتحدَّى نفسه والآخرين، وانتصر كذلك حين اكتشف الحقيقة، حين اكتشف القاتل، حين اكتشف قوته وقدرته وعقله. وما من نصرٍ يتحقَّق إلاَّ وله تضحياتٌ وجزاءٌ. وجزاء أوديب العاقل العارف، القوي الضعيف، صاحب العقل والقلب، الإنسان بكلِّ ما تحمله هذه الكلمة من معنى، في مجتمع لا يحبُّ النور والحقيقة، أو يرفضهما، أن يُكافأ بفقء عينيه، وأن يبقى أعمى لا يرى النور كالآخرين في مجتمعه، لكنَّه سيصبح أكثر بصيرةً، كتريسياس. فعماه الحسي هنا عمى مجازيٌّ، وليس عمى حقيقياً، وإنَّه من السابق لأوانه في مثل هذا المجتمع أن يكون موجوداً. لقد ارتقى أوديب إلى مستوى أعلى، إلى مستوى العارفين الذين يرون ما لا يراه الآخرون، بمعنى آخر تطهَّر، وهذا التطهير أوصله إلى مرتبة أعلى .

ومن هنا يمكن أن نفهم رمزية شخصيتي تريسياس وأوديب بطريقةٍ جديدةٍ. فإذا كانت تعني شخصية تريسياس عند بعض النقَّاد الحاضر، وشخصية أوديب الماضي، فإنَّها هنا تعني البصيرة والبصر، وما بينهما من فروق. أو الآلهة والإنسان، وما بينهما من فوارق، إنَّهما نظامان مختلفان متمايزان، نظامٌ إنسانيٌّ أرضيٌّ، ونظامٌ علويٌّ سماويٌّ، ولا يمكن للإنسان أن يتجاوز نظامه إلاَّ بالتضحية والعلم والمعرفة والبصيرة ومعرفة الذات وإيجاد التوازن معها ليصل إلى توازنٍ من نوعٍ آخر، هو توازنه مع القوة العلوية، والنظام السماوي، الأرقى، الذي يقود إلى السلام الحقيقي.

من هنا يمكن أن نفهم شخصيات العمل الأخرى، فالكهنة والعرافون يُمثِّلون السلطة العلوية في المجتمع، وأوامرهم نافذةٌ. وقد استغلَّوا هذه المكانة فتحكَّموا بالعباد كما أرادوا، ولا يريدون أن ينازعهم هذه السيادة مَنْ هو أقدر منهم، وأعلم منهم، وأوديب واحدٌ من هؤلاء الذين سيزلزل أقدامهم ويزاحمهم على مكانتهم، فأرادوا له ما أرادوا من موت .

أمَّا تريسياس، وإن كان ينتمي إلى هؤلاء الكهنة، إلاَّ أنَّه أعظمهم وأكبرهم، إنَّه يُمثِّل المعرفة الكلية، أو صوت الآلهة، وهو ملجأ كلِّ محتاجٍ. وفي حديث أوديب له تتجلَّى مكانته العظيمة في مجتمعـــه ((أي تريسياس، أنت الذي يظهر على كلِّ شيء، على ما يمكن أن يعلم وما ينبغي أن يخفى، على آيات السماء وعلامات الأرض. إنَّك لتعرف الشرَّ الذي تشقى به المدينة، إنَّا نريد أن ندفعه عنها، إنَّا نريد أن ننقذها أيُّها الملك، فلا نجد إلى ذلك سبيلاً غيرك، يجب أن تعلم ... بأنَّ خلاصنا من هذا الوباء رهينٌ بأن نستكشف قاتل الملك لايوس فنقتله أو ننفيه من الأرض، فقد آن لك ألاَّ تبخل بما توحيه إليك الطير من العلم وبما تلقيه في نفسك من الآيات المختلفة من المعرفة. أنقذ المدينة، أنقذ نفسك، أنقذني أنا أيضاً، ارفع عنَّا كلَّ رجسٍ. إنَّ أمرنا كله إليك، وإنَّ الرجل القوي حقاً هو الذي يستطيع أن ينفع الناس حين تُتاح له وسائل النفع))[46]. لكنَّ تريسياس أحجم عن قول الحقيقة لأوديب، خوفاً عليه. لكنَّه حين علم إصرار أوديب وثباته على موقفه أعلمه الحقيقة، واجهه بها، وضعه على المحكِّ العملي مع نفسه ومع مجتمعه، وأنَّ عليه أن يواجه مصيره بنفسه، وإذا حقَّق ذلك وانتصر، فإنَّ له مكانة أرقى. وما اتهام أوديب له ولكريون بالمؤامرة إلا نابعٌ من ضعف الإنسان أمام نفسه، أو عندما يفقد السيطرة على نفسه حين يُواجَه بالحقائق الصعبة.

46 - المصدر السابق ، ص 203.

وكأنِّي بسوفوكليس يريد أن يقول هنا لنا، إنَّه ليس من حقِّ الناس أن يطَّلعوا على الغيب والمستقبل الذي هو من شأن الآلهة. فتريسياس يتمتع بهذه المكانة التي منحته إياها الآلهة، وكان على علم بالغيب، وإنَّ مشيئة الآلهة نافذةٌ، علم بها الإنسان أم لم يعلم، ولكن ربَّما أرادت الآلهة أن توصل رسالة للإنسان الذي يجهل أموراً كثيرةً من علم القوة العليا، وعلى افتراض أنَّك علمت الغيب في يومٍ الأيام، فكيف ستتصرف أيها الإنسان بما تعلم؟ لقد سقط لايوس وزوجته في أول امتحان لهما، ولم يعملا العقل والفكر أو القلب. ولهذا تركت الآلهة الإنسان يمتحن ذاته وقدراته وعقله؛ فنجح راعي لايوس حين استخدم عقله وقلبه، رافضاً قتل وليد بريءٍ، وسقط في الامتحان الملك بوليبوس وزوجته ميروبا حين لم يقولا الحقيقة لأوديب وتركاه حائراً في البحث عن مصيره ومن هما أبواه الحقيقيان. وسقط الملك لايوس حين تشاجر مع أوديب في الطريق حين لم يُحكِّم عقله كحاكم وإنسان، ولم يلجأ إلى الحوار مع أوديب في مسألة الأحقيَّة في العبور. وسقط أوديب كذلك حين لم يستخدم عقله في هذا الشجار فقتل لايوس ومن معه ولم يحترم كبار السنِّ. وهل يستحق الأمر أن يقتتل الناس لأمورٍ تافهةٍ في الحياة؟ لكنَّ أوديب نجح في الإجابة عن سؤال الحيوان الرابض على بابِ المدينة، لأنَّه استخدم عقله. وسقطت جوكاستا حين قبلت بالزواج من أوديب لأنَّها لم تستخدم عقلها، فقبلت به زوجاً لها، دون مراعاة لمكانتها، ومراعاة شعور زوجها الذي قُتل قبل قليل، أيُعقل أن تغدو زوجة الملك إرثاً لملك آخر؟ وسقط مجتمع المدينة كلُّه في امتحان العقل حين لم يتابع البحث عن قاتل الملك. وكذلك سقط أوديب حين لجأ إلى سؤال الآلهة عن كيفية التخلص من الوباء الذي حلَّ بهم ولم يستشر أصحاب الرأي، لكنَّه نجح حين استخدم عقله في البحث عن اكتشاف القاتل ومتابعة القضية منذ خروج الملك لايوس من ثيبة ومقتله في الطريق واستدعاء كلِّ من كان له يدٌ في قضية مقتله .

أمَّا شخصية كاهن زوس فهي تُمثِّل شخصية الكاهن الوقور، المخلص لمجتمعه، المحبِّ له، الذي ينشد السلامة والخير والسعادة لكلِّ ثيبة. لذلك كانت نصائحه لأوديب نابعةً من قلبٍ رحيمٍ، عطوفٍ لطيفٍ، يريد الخير لمجتمعه وحاكمه، ويحترم الآلهة، لأنَّها تستحق الاحترام والإجلال. ويرى ببصيرته أنَّ الإنسان هو القيمة العليا في الحياة، وأنَّ أيَّ حضارةٍ عمادها الإنسان، فما قيمة الحياة من غير إنسان يُعْمرها ويقودها ويكون سيِّدَها.

أمَّا شخصية الملك لايوس، فهي شخصيةٌ لها وزنها الاجتماعي، فهو الحاكم، الذي يُمثِّل السلطة العليا في المجتمع، لكنَّه يعيش بعادات مجتمعه، مشدودٌ إليها كلياً، خاضعٌ لقوى أخرى، يأتمر بأمرها، مسلوب الإرادة والعقل والحكمة والمعرفة، أمره الكهنة، فلبَّى أمرهم دون تثبُّتٍ وتحقُّقٍ ومعرفةٍ. لم يناقش الأمر ويتروَّى في اتخاذ قراره، وإنَّما خضع كليَّاً لأمرٍ قد يكون صحيحاً أو خطأً، غيَّب عقله كليَّاً، ويتجلَّى ذلك في الأسطورة التي تُنبئ أنَّه وقع على زوجته حين فقد عقله ساعة لهوٍ وشرابٍ. فغياب العقل أصل كلِّ بلاءٍ، ولو لم يفقد عقله لما أنجب، ولو لم يغيِّب عقله لما دفع بطفل بريء إلى الردى. كيف جرؤ على أن يقتل ابنه، فلذة كبده، ألم يكن في مقدوره أن يفكِّر بالأمر ملياً، وينتظر حتى يكبر ابنه، ويربيه كما يريد ويهوى، ويتحقق من هذه النبوءة، أصحيحةٌ هي أم لا ؟ لقد دفع بطفله للراعي ولم يسأله فيما بعد عن مصيره، وكيف تخلَّص منه، وهذا خطأ آخر يرتكبه لايوس الحاكم. وتتكرَّر أخطاء الملك لايوس مرةً أخرى حين يُهدِّد الحيوان أمن مدينة ثيبة وسلامتها. ويشيرون إليه بسؤال المعبد، فيذهب بنفسه هو، ولا يرسل رسولاً من أتباعه، كما فعل أوديب حين كان حاكماً، وفي الطريق تكون المصادفة، أو إن شئت المواجهة الحقيقية بين الجهل والمعرفة، بين الملك لايوس الجاهل المُغيِّب عقله، وبين أوديب الساعي إلى المعرفة، حاضر العقل، فيقتل العقلُ الجهلَ، ويمنعه من الاسترسال في جهله واتباع الأوامر الغيبية التي يصدرها الكهنة أعداء المعرفة والعقل.

أمَّا شخصية جوكاستا فتُمثِّل شخصية المرأة الضعيفة، المحبة لشهواتها، المتقلبة الأهواء، والإيمان. المفضِّلة مصالحها على مصالح الآخرين، فتارةً نراها تؤمن بالآلهة، وتأتمر بأمرها، وتارةً نراها ترفضها ولا تأخذ بأوامرها، لقد كانت في أثناء المحاكمة التي عقدها أوديب تطلب منه عدم الاستمرار في البحث عن القاتل، وتثنيه عن ذلك كله. ((لا تحفل بهذا القول واسمع لي فإنِّي اعتقد أنَّ ليس بين الناس من يحسن فنَّ الكهانة ... وما أكثر ما كان قد رسمه الوحي فلا تحفل بذلك ولا تلتفت إليه، إذا رأى الآلهة أن يظهروا الناس على شيءٍ من علمهم أعلنوه إليهم بأنفسهم))[47]. لكنَّ أوديب كان مصراً على متابعة بحثه عن القاتل. لقد جاهدت كثيراً في ثني أوديب عن مواصلة بحثه، وتظاهرت بعدم الاهتمام لما يقوله أو يسأل عنه، لقد بدأ الشكُّ يساورها من أن تَصْدُقَ النبوءة القديمة، ويكون أوديب هو نفسه ابنها وزوجها. وهذا ما حصل، فبقدر ما كانت تدعوه إلى ترك البحث، كان أوديب يزداد إصراراً أكثر على مواصلة البحث، بل إنَّها هي التي جعلت أوديب يتحول من البحث عن القاتل إلى البحث عن نفسه ومن يكون. ((بحقِّ الآلهة إلاَّ ما تركت هذا البحث إن كنت معنياً بحياتك الخاصة (لنفسها) إنَّ شقائي يكفيني ... مهما يكن من شيءٍ فإنِّي أضرع إليك في أن تسمع لي وألاَّ تمضي في هذا البحث))[48]. لقد أدركت قبل غيرها الحقيقة، حقيقة أوديب ولا تريد أن تبوح بما يجول في نفسها، وأن لا يطَّلع عليه أوديب. لا تريد أن تدمِّر كلَّ شيءٍ، إنَّه ابنها وزوجها الآن، أية مصيبةٍ هذه التي ستحلُّ عليها وعلى ابنها وزوجها وحبيبها وأسرتها. وأوديب يرفض توسلاتها، ولا يطيعها في شيءٍ ((لا سبيل إلى طاعتك. لابدَّ أن يتبين هذا اللغز))[49]. فتردُّ عليه: ((ومع هذا فأنا أفكِّر في منفعتك

47 - المصدر السابق ، ص 220 وما بعدها .

48 - المصدر السابق ، ص 235 .

49 - المصدر نفسه.

وأنصح لك في المشورة))[50]. ويرى أوديب أن نصائحها أصبحت تزعجه وتؤذيه[51]. أيقنت أخيراً أنه ليس بمقدورها أن تفعل شيئاً. أيقنت أنَّ أوديب سيعرف بعد قليلٍ كلَّ شيءٍ، سيعلم من يكون، وسيعلم أنَّه سعى بنفسه إلى الهلاك، وإلى تدمير كلِّ شيءٍ.كانت تأمل ألا يفتضح هذا السرَّ، وألاَّ تؤذي أحداً. وقبل انسحابها من المشهد لتقتل نفسها ألماً على ما رأت وعاشت، وقبل مساءلة أوديب الراعيين الثيبي والكورنثي، وتتضح الصورة جليةً له، تقول بحسرةٍ لأوديب : ((أيها الشقيُّ وددت لو جهلت دائماً من تكون ... واحسرتا أيُّها الشقيُّ، هذا الاسم الذي أستطيع أن أُسمِّيك به ولن أستطيع أن أدعوك باسم آخر))[52].

إنَّ جوكاستا ترمز إلى العاطفة والرغبات والشهوات الدنيوية، وقد رفضها أوديب، تغلَّب عليها كلها، لم يستسلم لها ويركن إليها، لقد حاولت أن تمنعه من متابعة ما كان ينشده من حقيقة، فرفض، بل شعر أنها أصبحت مزعجةً وثقليةً عليه. لقد استطاع أوديب كيف يميِّز ما بين الخير والشرِّ، ما بين الواجب العام والواجب الخاص، تعالى عن كلِّ شيءٍ في سبيل هدفٍ أسمى وأرقى، فكان له ما رغب وتمنى. انتصر حين واجه، حين أدرك أنَّ العقل هو السبيل الذي يوصل إلى الحقيقة، وهي نعمةٌ في الإنسان عليه أن يستغلَّها ويوظِّفها توظيفاً سليماً. وربَّما نفهم الآن ما هما هذان الإثمان الحقيقيان اللذان ارتكبهما أوديب . إنَّهما الجهل والعاطفة وما يجرُّه كلٌّ منهما على الإنسان من أمورٍ سيئةٍ في حياته، فأبوه لايوس يرمز إلى الجهل فقتله، وأمُّه ترمز إلى العاطفة فكان مصيرها الموت. لقد انتصر أوديب لأنَّه يرمز إلى العقل، وأصبح يرى ببصيرته أكثر مما كان يرى بعينيه .

50 - المصدر نفسه.

51 - انظر المصدر السابق ، ص 236 .

52 - المصدر السابق ، ص 236.

أمَّا شخصية كريون فتُمثِّل شخصية الإنسان الداهية ، والحكيم الذي خبر الحياة كثيراً، فهو لا يفكِّر إلاَّ بنفسه ومصلحته ولا يعنيه العرش وما يحيط به من خوف وعدم أمان، فهو يُؤْثر سلطان الملك على أن يكون ملكاً، وهذا يمكِّنه من بلوغ ما يريد دون تعريض نفسه للخوف أو الكراهية. لقد وقف في وجه الملك أوديب موقف الندِّ للندِّ ، فحاججه حين اتهمه ذاك بالمؤامرة عليه مع تريسياس، ونعته بسوء الحكم، وبأنَّه لا طاعة لقاضٍ جائر[53]، وأطلق حكمةً بالغةً مؤثِّرةً في نفس أوديب حين قال: ((ليس من العدل أن تقضي في خفَّةٍ على الأخيار بأنَّهم أشرار، وعلى الأشرار بأنَّهم أخيار. إنِّي أرى أنَّ الذي ينبذ صديقاً أميناً إنَّما ينبذ حياته العزيزة عليه. إنَّ الزمن سيعلِّمك حقيقة الأمر في غير شكٍّ، فالزمن وحده يظهر الرجل الخيِّر، فأمَّا الشرِّير فإنَّ يوماً واحداً يلقي عنه القناع))[54].

ولو نظرنا إلى هذه المأساة من وجهة نظر أخرى، وتساءلنا عن المذنب الحقيقي في هذه المأساة، أي من الذي تسبب حقيقةً في جعل أوديب يرتكب هذين الإثمين العظيمين، قتل أبيه، والزواج من أمه؟ لرأينا أنَّ الجميع يشتركون في هذه المأساة، والذنب لا يقع على شخصٍ مُعيَّنٍ. فالكلُّ شارك في الذنب. ولو أمعنا النظر أكثر لرأينا أنَّ السبب في هذه المأساة هو تغييب العقل، فالكلُّ غيَّب عقله، وما أتعس الإنسان حين يُغيِّب عقله ! فلايوس -كما قدمنا- غيَّب عقله كلياً، وكذلك جوكاستا كان عقلها مغيباً كزوجها، فرمت بابنها بيد راع ليقتله، ولم تسع لتستفسر عن ابنها، فلذة كبدها، وما جرى له. ولم يكن ملك كورنثة وزوجته مهتمين بمصير أوديب، ولم يُطلعاه على أصله، أو يفكِّرا كثيراً بمستقبله وحياته وما سيعانيه إذا بقي مجهول الهوية والمصير. ففارقهما دون رجعةٍ، باحثاً بنفسه عن نفسه.

53 - انظر المصدر السابق ، ص 214 وما بعدها.

54 - المصدر السابق، ص 215.

أمَّا راعي لايوس، الإنسان البيسط، فقد أخذته الشفقة والرحمة على هذا المولود الصغير، فأبى أن يقتله رأفةً ورحمةً به، وربما كان أكثر عقلاً من أبويه حين تركه يعيش. لقد فكَّر ما ذنب هذا الوليد أن يقتل. لكنَّه من جهة أخرى ارتكب معصيةً كبيرةً بحقِّ سيِّديه الملك والملكة حين لم ينفذ ما أمراه به . لقد خالف سيِّده، وظنَّ أنَّه خالف مشيئة الآلهة حين أبقاه على قيد الحياة، إلاَّ أنَّ مشيئتها نافذةٌ. لقد رأت الآلهة أنَّ هذا الوليد سيكون كارثةً على أبويه، لكنَّ الراعي، بحكم وعيه الساذج والثقافة التي ينتمي إليها، فعل ما أوحت إليه نفسه، دون تفكيرٍ بالعواقب التي ستجرُّها مثل هذه المخالفة التي قام بها. كما أنَّه ارتكب خطأً كبيراً حين لم يخبر لايوس أنَّ هذا الشاب الذي تقاتله هو ابنك الذي دفعته إليَّ لأقتله فيما مضى. والخطأ الآخر أنَّه أخبر الملكة جوكاستا، وأهل المملكة أنَّ الذي قتل الملك جماعةٌ وليس شخصاً واحداً، خوفاً من العقاب الذي ينتظره، فلو قال الحقيقة ساعة الاقتتال لجنَّب الملك الموت ولم يكن قد حصل ما حصل من آثام تالية. لكنَّ خشيته من العقاب جعلته يتخلى عن مبادئه، فكان سبباً في كلِّ ما جرى .

وكأن الآلهة تريد من جانبٍ آخر أن تقول : مهما فعلت أيُّها الإنسان لتتهرب من مصيرك، فإنَّ مصيرك لن يتغير، فما قُدِّر لك واقعٌ لا محالة، مهما شرقت أو غربت.

أمَّا الراعي الكورنثي ، فشأنه شأن راعي لايوس ، أراد أن يُقدِّم خيراً لملكه، ربَّما طمعاً بمالٍ أو جاهٍ ، فقدَّم الوليد إلى سيِّده الذي فرح به من جانبه .

لقد اشترك الجميع في المأساة التي جرَّت المصائب العظيمة عليهم جميعاً، وأوديب نفسه كان ضحيةً من ضحايا هؤلاء جميعاً، ضحية مجتمعٍ لم يوظِّف عقله توظيفاً صحيحاً في تسيير شؤون حياته .

خامساً: العبـــر والفوائـــد

إنَّ سوفوكليس أراد من خلال عمله هذا أن يوصل أكثر من رسالة إلى المشاهد، فهو يرى أنَّ أوديب يمثل مرحلة انتقالٍ بين اللاعقل والعقل، بين اعتماد الفكر الساذج، وبين اعتماد الفكر المبني على أسسٍ علميةٍ ومنطقيةٍ من أجل الوصول إلى الحقيقة. هو وسيط بين هذا وذاك، لكنَّه من جانبٍ آخر يمثل مرحلةً خطيرةً في المجتمع الذي نشأ فيه .

إنَّه يريد أن يقول إلى أيِّ مدىً يستطيع الإنسان أن يكون حكيماً إذا وُضع في مأزقٍ، وكيف سيتصرف للخروج مما هو فيه؟ وأي الشخصيات كانت أكثر حكمةً هنا؟

إنَّ جوهر مأساة أوديب قائمة على الدعوة إلى استخدام العقل، فالعقل هو السيد، وهو الذي يمكن الإنسان من سلوك الطريق السليم لتجنُّب أيَّة مشكلةٍ تصادفه. ويجعل حياته أكثر سعادةً وهناءً .

ولا يحقُّ لإنسان أن يسخر من الآلهة، فهي السلطة العلوية، وعلى الإنسان أن يحترمها ويُجلَّها ويعرف أنَّه أقلُّ منها شأناً، وهي تعرف ما لا يعرف، وعليه ألا يعترض على ما تأمر به. وليس من حقه أن يطلع على الغيب، فهذا من شأن الآلهة وسرٌّ من أسرارها، وإذا أصرَّ الإنسان على ذلك، فقصة أوديب أعظم درسٍ وعبرةٍ له.

على الإنسان أن يعلم أن الآلهة لا تكرهه، ولا تتمنى له التعاسة، فالتعاسة تأتيه من سوء أفعاله، ومن سوء استخدامه لعقله، وأنَّ من يعملون بالكهانة يفسدون العلاقة بين الآلهة وبين الإنسان. وكأنِّي بسوفوكليس هنا يريد أن يقول للإنسان عليك أن تحذر ممن يمارسون فنَّ الكهانة، فهي داءٌ ومرضٌ خطيرٌ في أيِّ مجتمعٍ وجدت فيه، إنَّ صلتك بالآلهة يجب أن تكون مباشرة، ولا تأتمر إلاَّ بها .

ومما سبق نلاحظ أن سوفوكليس ضمَّن هذه المسرحية كثيراً من القضايا الدينية والسياسية والاجتماعية والأخلاقية؛ فقد لفت نظرنا إلى علاقة الحاكم بشعبه وكيف يجب أن تكون هذه العلاقة، وإلى علاقة الخادم بسيِّده وإطاعة الأوامر .كما نبَّهنا إلى خطورة الزواج من المحارم والعواقب التي يجرُّها مثل هذا الأمر في المجتمعات، وكذلك أشار إلى مسألة التبني وما تخلفه من أخطار وكوارث على المجتمع . وربما كان سوفوكليس من أوائل الذين أقاموا محكمةً في التاريخ الإنساني وسار فيها على منهج منطقي وعلمي لكشف الحقائق .

من هنا استمدَّت مسرحية سوفوكليس قوَّتها وقدرتها على البقاء زمناً طويلاً وارتقت إلى مستوى الأدب العالمي .

لن أدَّعي أنَّ هذه القراءة هي القراءة الأخيرة لمسرحية "أوديب" ومأساته، إنَّها إسهامٌ متواضعٌ لفهم أسطورة أوديب من جهةٍ، وفهم فلسفة سوفوكليس من جهةٍ ثانيةٍ. وتقديم الفائدة للقارئ ودارسي الآداب العالمية والمقارنة من جهةٍ ثالثةٍ .

المصادر والمراجع

1- إسماعيل، عز الدين: قضايا الإنسان في الأدب المسرحي المعاصر، دراسة مقارنة، دار الفكر العربي، 1980.

2- بدوي، عبد الرحمن: تراجيديات سوفقليس، ترجمة وتقديم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1996.

3- بدوي، عبد الرحمن: تراجيديات أسخولوس، المؤسسة العربيــة للدراســات والنشــر، بيروت ، ط1 ،1996.

4- جيد، أندريه: أوديب، ثيسيوس، ترجمة : طه حسين، دار العلم للملايين، بيروت، ط5 ،1985.

5- الحكيم، توفيق: الملك أوديب ، مكتبة الآداب (القاهرة)، دون ناشر أو سنة الطبع.

6- سوفوكليس : من الأدب التمثيلي اليوناني ، ترجمة طه حسين ، دار العلم للملايين ، ط3، 1981.

7- سوفوكليس: أوديب ملكاً ، ترجمة على حافظ ، مسرحيات عالمية 52، دون ناشر أو سنة الطبع .

8- سوفوكليس: الملك أوديب، ترجمة أنطوان عبدالله، ترجمة قسم الدراســات والترجمة، دار الأنوار، دمشق، 2007.

9- سفوكليس: الملك أوديب، ترجمة عمار أحمد حامد، دار العائدي للنشر والدراسات والترجمة، دمشق ، ط2 ، 2005.

10- السيد، شفيع: فصول من الأدب المقارن، دار الفكر العربي، القاهرة 1990 .

11- صالح، عبد المطلب: مباحث في الأدب المقارن، دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة والإعلام ، بغداد ، 1987 .

12- عبد الرحمن محمد، إبراهيم : النظرية والتطبيق، دار العودة، بيروت، 1982.

13- عبد الله، مصطفى: أسطورة أوديب في المسرح المعاصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1983.

14- عتمان، أحمد: الشعر الإغريقي تراثاً إنسانياً وعالمياً، عالم المعرفة 77، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مايو 1984.

15- عتمان، أحمد: المصادر الكلاسيكية لمسرح توفيق الحكيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهــرة، 1978.

16- العشماوي، محمد زكي: دراسات في النقد المسرحي والأدب المقارن، دار النهضة العربية، بيروت، 1983 .

17- عصمت حمدي، محمد: الكاتب العربي والأسطورة، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، القاهرة ، 1968 .

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق 2011/10/2